

لماذا نفتح أفواهنا ونبلق؟!؟

عبدالله المغلوث*

تلهج حلق الفنلنديين بالأدعية، وتمتلئ عيونهم بالدموع، وهم يرون زميلتهم ساتو فينيو (٣٤ عاماً)، تسلم لسانها للصحفيين، ووجهها للمصورين الأسبوع الماضي في الإمارات.

يقول الفنلندي يونس بيفلي ونحن نتسلق جبل حفيت بمدينة العين الإماراتية، وهو غارق في دموعه. إنه يود أن يطير من فرط سعادته، "العالم يعلم الآن أن فنلندا ليست هي موطن شركة الهاتف النقال (نوكيا)، ولديها ١٨٨ ألف بحيرة، و ١٨٠ ألف جزيرة فحسب بل لديها فريق (تيم أكاديمي) سيغير مفهوم التعليم الجامعي".
الأسبوع الماضي، عشت أجمل ٤٨ ساعة في العام الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة إثر حضوره لفعاليات مؤتمر الجمعية الخليجية للتعليم المؤسسي، الذي انعقد هذا العام في مدينة العين الإماراتية، نظراً للأفكار الغفيرة والثمينة التي تداولها الحضور، والذين جاءوا من كافة أصقاع العالم. وهنا يجب أن أشيد بأعضاء الفريق الذين قاموا بجهود جبارة لتقديم لقاء مختلف ومدش.

وقد كان من بين الحضور فريق صغير من الشباب من الجنسين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والثلاثين. وقد لفتوا أنظار الجميع طوال فعاليات المؤتمر من خلال ألوان شعورهم، وملابسهم غير النمطية والتقليدية. فإحداهن كانت تعتمر شعراً أسود حالكا ينتهي بذيل أصفر. وأخرى ترتدي سترة خضراء، تعلوها أزرة ذهبية كالتي يلبسها الضباط الأوائل. في حين كانت تغطي زميلتهما الثالثة جسدها بقطعة هائلة من القماش، وتضع على رأسها قطعة صغيرة مزركشة، وملونة كأنها ريفية عتيقة.

هباتهم دفعتني وعدد من الحضور إلى التساؤل خلصة: "كيف توجه اللجنة المنظمة الدعوة لهؤلاء للحضور؟".
لكن لم تمض ساعات قليلة على تساؤلاتنا إلا وحن موعد عرضهم الذي دفن سخطنا، عندما تحدثوا عن تجربتهم في فنلندا، حينما تملدوا على النظام التعليمي الجامعي، وصمموا برنامجاً يعتمد على قيام الطالب بالتعاون مع شركة أو مؤسسة خاصة بتصميم مشروع لمدة ٣ سنوات ونصف وعلى ضوء نجاح المشروع يمنح الطالب شهادة بكالوريوس في إدارة الأعمال دون أن يحضر محاضرات كلاسيكية يومية، ويؤدي اختبارات تقليدية.
ويخضع الطالب خلال مشروعه إلى تقييم دوري من "مدرسين وليسوا أساتذة"، كما تقول المدربة ساتو فينيو التي جاءت للعين، للحديث عن برنامج (تيم أكاديمي)، الذي تخرجت منه.

ومن متطلبات التخرج أيضاً قراءة ما بين ٦٠ - ٨٠ كتاباً اختيارياً من ضمن ١٠٠٠ كتاب ترشحها الجامعة.
وقد انطلق هذا البرنامج في ٢٤ يناير عام ١٩٩٣م، "حينما قام الطالب الشجاع تيمو بارتنين، بالثورة ضد البرامج التعليمية التقليدية في جامعة بيفاسكيلا. وقد مشروعه الذي حظي بدعم إدارة الجامعة"، كما تقول مقدمة الموقع الإلكتروني لبرنامج (تيم أكاديمي).

يقول الكاتب الصحفي الفنلندي، بيبو لوري عن طلاب البرنامج، الذي أثار فضول وسائل الإعلام في فنلندا وما جاورها: "يمكنك التعرف عليهم عن طريق ملابسهم، وخواتمهم العملاقة، إنهم متمردون على كافة التقاليد، لكنهم متميزون في الإنتاجية، وخالقون في الأفكار".
سألني: "هل رأيت الحملة الدعائية الأخيرة التي صممها لنوكيا؟".

يرجع طالب السنة النهائية في البرنامج، يونس انخراطه في البرنامج إلى كونه مؤمناً بأنه سيبدع في المجال الذي يحبه ويعشقه، بينما سيكون "مكروراً، خديجاً عندما يدرس شيئاً لا يستسيغه".
أما زميلته إيلونا فتقول إنها لا ترغب في إهدار أربع سنوات من عمرها في دراسة نظريات دون تطبيق عملي، "أحب أن أعمل، لا أن أفتح فمي وأبلق!".

التساؤلات التي ارتكبتها إيلونا وقبلها يونس جعلتني أتساءل بيني وبين نفسي قائلاً: لماذا تأتي الأفكار الخلاقة من الخارج؟، لماذا لا نجد التفكير والعمل كما نجد فتح أفواهنا والبلحقة؟
ربما تعيش الإجابة على تساؤلاتي في بطن إجابة الفنلندية ساتو فينيو، التي سألتها قبل أن أغادر العين، عن أبرز شيء أعجبها في منطقة الخليج، فأجابت قائلة: "طعامكم. فعندما أكل لا أستطيع أن أتحرّك أو أفكر!".

*كاتب سعودي

الوطن ٢٠٠٦/١٢/٢٢

٢٢٧٥